

السيرة النبوية بين الرؤية العاطفية والرؤية التاريخية

رمضان الحسين

مؤنس ، حسين/دراسات في السيرة
النبوية . — القاهرة : دار الزهراء للإعلام
العربي ، ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م . —
٣٤٢ ص ؛ ٢٤ سم . — [مطبوعات بنك
فيصل الإسلامي المصري] .

ولقد صدر الكتاب في طبعته الأولى عام
١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م عن دار الزهراء
للإعلام العربي بالقاهرة . وهو من مطبوعات
بنك فيصل الإسلامي المصري . والكتاب
يحتوي على اثنتين وأربعين وثلاثمائة صفحة
من القطع الكبير ، واشتمل على أربع
دراسات في جوانب السيرة . الدراسة الأولى

لقد ظهر حديثاً كتاب بعنوان
« دراسات في السيرة النبوية » للدكتور :
حسين مؤنس ، ذلك العالم المؤرخ الباحث
الذي يحص ويدقق فيما يتناوله . ومن هنا
كان كتابه سابق الذكر منعطفاً جديداً ، قد
يكون له أثر كبير فيما يتلوه من كتابات
تتحدث عن السيرة النبوية .

وطبقاً لهذا المنهج التاريخي سار المؤلف
« ونحن عندما نكتب السيرة الآن فإننا
نكتبها على مذهب آخر بأسلوب جديد ،
نؤكد به حقيقة حيوية العصر النبوي كله
الدافقة ، فالسيرة عندنا أبد جديدة لا تبلى
ولا تتقدم ، لأن رسول الله ﷺ يخاطب
العصور جميعاً بحديثه ويعظها كلها بسيرته
حتى يطوي الله الأرض ومن عليها » ص
٢٠٨ .

وطبقاً لهذا المنهج استخلص المؤلف أشياء
طيبة نوافقه عليها :

من هذه الأشياء : توضيح الفرق بين الرؤية
العاطفية والرؤية التاريخية للسيرة النبوية . ولقد
كان المؤلف فطنا حين ذكر أن كتابة السيرة
قد اختلفت في غايتها على مر العصور ، كما
اختلفت أيضاً باختلاف البيئة الجغرافية
والظروف السياسية والاقتصادية ... ويقدم
الشواهد على ذلك من خلال ما كتب في
المغرب العربي وفي الأندلس خلال مرحلة
الصراع فيها .. وأيضاً من خلال ما كتب
خلال الحروب الصليبية ثم يُعقّب على ذلك
قائلاً : « وهذه كلها مواقف مفهومة
معقولة ، ونحن نقدر أصحابها ونحترم
مذاهبهم وغاياتهم وإخلاصهم ، وإن لم نكن
بالضرورة على مذهبهم في النظر إلى السيرة
النبوية وكتابتها » ص ٢٠٨ . ويفهم من
كلام المؤلف أن العالم الآن ، بعد أن مُجّيت
بين بلاده الفواصل الزمانية والمكانية — بما
استجد من إمكانيات العلم ، وما سوف

بعنوان : الرؤية العاطفية والرؤية التاريخية
للسيرة النبوية . والثانية : نزول الوحي
والطريق إلى النبوة والرسالة . والثالثة : دراسة
في موقعة بدر والمغازي الأولى . والرابعة :
التاريخ الصحي لرسول الله وانتقاله ﷺ إلى
الرفيق الأعلى . ولقد سُبقت هذه الدراسات
بتقديم من بنك فيصل حول الكتاب
والمؤلف ودور البنك في نشر الثقافة
الإسلامية ثم مقدمة المؤلف حول ظروف
كتابته ، ويعقب هذه الدراسات ذكر مراجع
الكتاب العربية والأجنبية ثم يُختتم الكتاب
بفهارس للأعلام والأماكن والموضوعات .

ولعل السرّ في أن هذا الكتاب يُعدّ
منعظاً جديداً في التناول أنه يوضّح الفرق
بين نوعين من الكتابة . النوع الأول : الرؤية
العاطفية ، وفيها يركّز الكاتب على مخاطبة
عاطفة المسلمين المنفعلة بالإكبار والإجلال
لنبيهم ﷺ وصحابته الأبرار ، ويرى المؤلف
أن هذا المنهج وإن أدّى قدراً من النجاح إلا
أنه محدود القيمة لأنه موجه للمسلمين
فقط ، ثم إن الكاتب الذي يأخذ بهذا المنهج
ربما أورد أشياء لا يسيقها منطق العقل
الواعي ، وقد يضر ذلك بالسيرة النبوية . أما
النوع الثاني من التناول فهو الرؤية التاريخية ،
وطبقاً لمنهجها لا يكتفي المؤلف بإيراد الأخبار
ولكنه يجمعها ويمحصها وينتفع بكل ما ورد
فيها من أعلام وأماكن ليقدم بعد ذلك صورة
عالمية تليق بعظمة رسول الله ﷺ ، الذي
بعثه الله للعالمين خاتماً للأنبياء والمرسلين .

يستجد — يوجب على المسلمين أن يتناولوا سيرة النبي ﷺ بالعقل الذي تركيه العاطفة ، وذلك كي يقدموا للعالم نموذجاً رائعاً للنبي الخاتم وصحابته الذين آمنوا به ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وهذا النوع من الكتابة سوف يكون زاداً للمسلمين في أنحاء الأرض ، والمحرومين من التراث الإسلامي الصافي ، وكل ما بين أيديهم إنما هو كتابات الغرب المعرض حول الإسلام ، ومعلوم أنها مملوءة بالسُموم التي تلثم الدين وتحطم العقيدة .. وأخيراً فإن كتابة السيرة بهذا النهج الجديد سوف يعمل على تكوين عقل منظم لدى عامة المسلمين بحيث يتلاءم تفكيرهم وعملهم مع منطق العصر .

وأيضاً يوضح المؤلف أن تناول السيرة بهذه الطريقة يجعلنا نفكر كي نستخلص منها الدروس والعبر التي تفيدنا في علاج كثير من مشكلاتنا . ونحن نوافق المؤلف على ذلك غير أننا كنا نرجو منه أن يركز على هذا الجانب أكثر مما فعل ، نعم لقد أشار في بعض المواقف إلى ما يمكن أن يكون قدوة للمسؤولين إذ يجب عليهم أن يعالجوا الأمور بالرفق وحسن التأني والتخطيط السليم على هدى من فعل رسول الله ﷺ . وأيضاً أشار إلى أن الدعاة يجب أن يكونوا قدوة حسنة لأتباعهم فيما يذللونه من جهد وما يقدمونه من تضحية . ولكننا مع ذلك كنا نرجو مزيداً من الإيضاح كأن يتناول

الكاتب مشكلة من مشكلات عالمنا الإسلامي المعاصر — وما أكثرها — ويوضح كيف يكون علاجها الكامل في ضوء ما يستخلص من السيرة النبوية على هدى دراسته الجديدة .

ولقد أعجبني كثيراً أن المؤلف أخذ على كتاب السيرة مبالغتهم في ذكر فقر الرسول منذ ميلاده حتى وفاته ودرعه مرهونة عند يهودي كما يذكرون . ولقد أكد الكاتب أن الرسول ﷺ كان قبل البعثة وبعدها رجلاً ميسور الحال ، وأنه ما كان يعيش من مال خديجة كما ثبت في أذهاننا نتيجة لما سمعناه وقرأناه . وتلك إضافة جديدة لم يقصر المؤلف في إيراد البراهين على صدقها ولم يأل جهداً في إيضاح أثرها الطيب عندما تتخذ منهجاً في الحياة يحرص عليه الدعاة إلى الحق .

وعندي أن الذي أوقع الرواة في هذا الأمر ، هو أن الرسول ﷺ في معرض التعبير عن اعتزازه بالسيدة خديجة رضوان الله عليها قال : « .. وواستني بمالها إذ حرمني الناس .. » ولكن ذلك ليس معناه أن الرسول ﷺ عاش كلاً — وحاشاه — على مال خديجة . وإنما يفهم منه أن السيدة خديجة بعد زواجها من رسول الله ﷺ سلمت له أمورها ليعمل لها في مالها ، وهو خير من يؤتمن ، وليس هناك ما يمنع من أنها جعلت هذا المال في خدمة الحوائج العارضة للأسرة ثم بعد ذلك في خدمة الدعوة .

ونوافق المؤلف على ما ذكره من أن الرسول ﷺ أنشأ في المدينة أمة لا دولة ، ذلك لأن كل فرد داخل تلك الأمة كان له كيانه المستقل بذاته لا بمن ينوب عنه ، وأن الرسول لا ينبغي أن يسمى بالقائد أو السياسي أو الدبلوماسي .. إلى غير ذلك من الأسماء التي تلازمها ظلال كئيبة ، والأولى أن يُسمّى الرسول بما ورد في القرآن من مثل : الداعي والهادي والشاهد والسراج المنير .. الخ .

وأيضاً من الأشياء التي أعجبتني أن المؤلف عالج أمر الغزوات التي سبقت غزوة بدر الكبرى علاجاً طيباً ، تناول فيه الأقاليم ومراكز العمران في الجزيرة العربية ووضح الصلة بينها .. وخلص من ذلك إلى أن الغزوات كانت عملاً مُخططاً من الرسول ﷺ كي تدخل الجزيرة العربية كلها في الإسلام في وقت معين ، وليس ذلك خاضعاً لحتمية التاريخ كما يقول البعض » ولكنه منطق الحوادث وسيرها في الطريق الذي رسمه لها علام الغيوب ، والله سبحانه وتعالى يهيئ الأسباب ويدع الأمور تجري على المنطق الذي يفهمه الناس ، حتى لا يُظن أن الإنسان مجبر ، وأن الأمم مُسيرة ، إذ الحقيقة أن الله يهيئ الظروف ، ويدع الإنسان يختار ، فيتلاقى القدر والاختيار » ص ١٤٢ ، ١٤٣ . ويقول أيضاً » وهذه الأخبار والتفاصيل تزيد من معرفتنا ببطانة الرسول وبعد نظره وحسن تدبيره للأمور ، فهو

يتلقى الوحي من الله ، ويهتدي بهدي الله ، ولكنه يتصرف تصرف بشر ، وذلك حتى نتأمل عمله ونقتدي به فيه » ص ١٤٨ . وكذلك أقدر اهتمام المؤلف بتأصيل الكلمات وتحليلها لغوياً والخروج من ذلك بنتائج طيبة . مثال ذلك وقفته مع لفظ القنوت ص ٨٤ ، ٨٥ ، غطّ ص ٩٦ ، ٩٧ ، التاموس ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، الغزوات والمغازي ص ١١٤ ، ١٢٥ الخ .

هذا .. ولقد نجح الكاتب في أن يقدم لنا رسول الله ﷺ إنساناً عظيماً ، اصطفاه الله ليكون سراجاً منيراً ورحمة للعالمين ، كما قدم لنا صحابة رسول الله بشرّاً يعترفهم الضعف ولكنهم بما علمهم الرسول وبما أضاءت به نفوسهم من نور الإيمان استطاعوا أن يقدموا للعالم نماذج إنسانية رفيعة ، استطاعت رغم الضعف الذي في داخلها أن تكون من جند الحق ، ينتشر على يديها دين الإسلام الحنيف .. ولقد كنا نقرأ السيرة من قبل فلا نكاد نشعر إلا بالنبى الرسول الرحمة المهداة والذي هو على خلق عظيم والمعصوم من كل خطأ .. وكل ذلك حق وصدق ولكننا بطبيعة الحال ما كنا نخذ في أنفسنا الطاقة على التأسي لأنه نبي رسول معصوم ونحن بشر . وأيضاً كان الصحابة يُصَوِّرون لنا على أنهم حُلُوم من المعائب ، لا يعترفهم النقص ، وبذلك ما كنا نجد باباً للاقتداء بهم .

ولكن هناك أشياء لا نوافق المؤلف عليها أو نتحفظ في قبولها من ذلك :-
— أنه أخذ على كُتّاب السيرة ذكرهم لعصمة الله لرسوله ، ورأى أن ذلك يخالف العظمة التي يراها وهي ثبات الرسول وتحمله الأذى في سبيل دعوته بما يجعله قدوة لكل صاحب دعوة أو مبدأ .

ورأى أن المؤلف قد نسى أن أمر العصمة هذا وارد في القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة : ٦٧ ولقد فهم الكتاب والقرآن أن العصمة ليست من الأذى ولكنها من القتل حتى يتم الله أمره وينصر دينه كما وعد بذلك نبيه ، والدليل على ذلك أن الكتاب بجانب ذكرهم لتلك العصمة ذكروا أن (عقبة بن أبي معيط) خنق الرسول حتى جحظت عيناه وقبض الله أبا بكر ليدفعه عنه ، وذكروا أن الأشواك كانت تُوضع في طريقه ، وأن الأوساخ كانت تُلقى عليه ، وأن السيدة فاطمة رضي الله عنها قامت تدفعها عنه وهي تبكي وهو يقول لها : لا تنك يا فاطمة فإن الله مانع أباك . ثم أخبار مقاطعة بني هاشم والخروج إلى الطائف ، وكذلك ما أصاب الرسول في أحد من السقوط في الحفرة وشق جبهته ﷺ .. إلى غير ذلك . ولكنها تجعل أي قارئٍ للسيرة . فضلاً عن الكُتّاب — يفهم أن العصمة ليست من الأذى ؛ لأن الأذى واقع وحاصل .

ولا أوافق المؤلف على تلك النبرة العالية التي انتقد بها كُتّاب السيرة ، بحيث خُيل إليّ أن كل فكرة قال بها واحد في موقف معين أخذها المؤلف على أنها قاعدة عند كل كُتّاب السيرة وانطلق منها مهاجماً . من ذلك ما ذكره في ص ٤٨ ، ٤٩ من أن « الرسول ﷺ كان يعمل بيده في تبليط الطريق ، وكذلك كان يعمل بيده في كل شيء يأمر به ويقول . وهذه ناحية من نواحي الهدى الحمديّ تغيب عن كثير من مؤرخينا وبخاصة المتأخرين منهم ، الذين يصوّرون لنا رسول الله في صورة الحاكم الآمر الناهي » والحقيقة أنه لم يصادفني كاتبٌ واحدٌ قال بما استنكره الكاتب ، اللهم إلا إذا كان الأمر متعلقاً بشيء قد أمر الله به .. ومع ذلك فإنه في هذه الحال خاصة يكون سلوك الرسول ﷺ هو الشاهد العملي . وتحفظ في قبول ما ذكره الكاتب من أن العداوة بين الهاشميين وبني عبد شمس بدأت يوم بدر بسبب من قتلوا في بدر من الأمويين ، وينكر أن تكون تلك العداوة — أو الصراع — بين القبيلتين قد بدأت قبل ذلك إذ لا مبرر له ، والذي يجعلني أتخفظ في قبول وجهة نظر الكاتب كثرة ما روى من أخبار الصراع بين البيتين حتى من قبل ميلاد محمد ﷺ .

وأضيف أنني قد شعرت ببعض الحرج وأنا أقرأ بعض عبارات الكاتب وبعض ما أورد من أخبار ، لأنها يمكن أن تصيب القارئ بنوع من الشك في السيرة وفي العقيدة مثل قوله

« فنحن هنا أمام أخبار تترامى إلينا من خلال الكتب ، والله سبحانه أعلم أيها الصحيح » ص ٢٧٤ . نعم تلك عبارة صحيحة في مضمونها ، ولكنها قد تصيب القارئ بنوع من البلبلة والشك في السيرة وفي التاريخ كله ، وينبغي أن يتلقى المسلم سيرة الرسول خالية من أي ظلال للشك ، نظراً لصلتها الكبيرة بالعقيدة . ومثال آخر حين ذكر الكاتب أن أبا بكر وعمر ما كانا ليتركا أمر الخلافة للأنصار « إن المهاجرين من القرشيين كان فيهم اعتداد بأنفسهم وترفع على الناس » ص ٢٨٨ . وقوله متحدثاً على لسان عمر بن الخطاب رابعاً ما حدث في السقيفة « قلت أبسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعته ، وبايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار ، ونزونا — كذا — على سعد بن عباد ، فقال قائل : قتلتم سعداً ، فقلت : قتل الله سعداً » ص ٣٠١ . وإذا كان الكاتب يرى أنه لا يرى فيما رواه شيئاً يضر السلف الصالح فإني أرى أن هذا الضرر قد حصل بالفعل .

ونذكر أخيراً موقفاً للكاتب بشأن موقف الإسلام من الانتفاء القبلي ، لأنه في ص ١٣٨ يقول : « ولكنه — أي الإسلام — لم يبلغ القبيلة ، ومهما بحثنا فإننا لن نجد أن الإسلام ألقى انتفاء الإنسان إلى قومه أو قبيلته ، لأن الانتفاء جزء من طبيعة الإنسان » وهذا من المؤلف كلام يحتاج إلى

تدقيق ، لأن الثابت من روح الإسلام أنه لا تناصر إلا بالإسلام وتحت رايته ، وأن من رفع شعاراً غير ذلك فقد دعا بدعوة الجاهلية . أما استشهاد الكاتب بما ورد منسوباً إلى الرسول وهو يحجب الرجل الذي طلب منه أن يرد إليه كل ماله بعد إسلامه « فأما ما كان منه لي ولنبي هاشم فهو لك » فإنه لا يصلح دليلاً له ، لأنه لا يزيد على أن يوضح مدى استعداد الرسول للتأثير في أمور الناس الخاصة . ثم إن الكاتب نفسه يعود إلى مناقضة فكرته فيقول « لأن أمة المدينة قامت وسط بحر من القبائل التي لم تعرف من قبل شيئاً مثل تلك الجماعة القوية المنظمة القائمة أساساً على الدين وأخوة الإيمان لا على العصبية القبلية » ص ١٤٦ .

ويلاحظ أن الكاتب كان منفعلاً بنشوة أو نشواناً بانفعال ، ذلك لأنه لا يمل لفت النظر إلى جهده الذي يرى فيه كل الجدة وكل الصلاح .. وأيضاً لا يمل من توجيه العتاب واللوم والتقريع لمن سبقه من الكتاب الذين درسوا سيرة الرسول ﷺ . وكان الأولى به وهو العالم الثبت أن يؤتي ما آتى وقلبه وجل خشية أن يخط عمله ، وعرفاناً بحق العلماء السابقين الذين خدموا سيرة الرسول ﷺ ، وهم وإن أخطأهم التوفيق في بعض المواقف فلهم أجرهم .. ثم كان عليه أن يتحسب ليوم يخاسبه فيه اللاحقون

بمقياس عصرهم الذي لم يخطر له على بال ، ولم يدخل له — قط — في حسابان .

والدليل على انفعال المؤلف تجاه من كتبوا في السيرة — سواء في ذلك القدماء أم المحدثون — أن المؤلف يرى أن السيرة منذ كتب ابن هشام سيرته أصبحت تُساق مساقاً دينياً طغياً في صياغة مرسلة دون نقد للخير أو أي معيار لإسناده ، وأهمل التحقيق والمقارنة والنقد والمساق المنطقي للحوادث « ومن ذلك الحين أصبحت سيرة ابن هشام هي الأصل الذي ينقل مؤرخو السيرة عنه ، والمثال الذي يحتذ به كل من كتب في السيرة من المسلمين » ص ١٢ .

أما عن المحدثين فيقول « وعندما بدأنا دراسة السيرة في عصرنا هذا ، كانت الرؤية العاطفية هي الغالبة كما نرى فيما كتبه الشيخ محمد الخضر ، والدكتور حسن إبراهيم حسن ، وسليمان الندوي ، ومن إليهم ، فليس فيما كتبه هؤلاء كبير بحث أو تحقيق أو تدقيق ، بل ليس هناك تحقيق للنصوص أو ضبط للأصول التي يعتمدون عليها . وتوالي هؤلاء جميعاً يمكن إعتبارها رسائل في التقى والورع ، ومواعظ في مكارم الأخلاق ، حول سيرة المصطفى ﷺ . ويدخل في هذا كل ما كتبه أهل الأدب من أمثال محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وغيرهم ممن يقرأ الناس لهم في السيرة في عالم الإسلام اليوم ،

فليس في معظم هذا كله من البحث والتحقيق ما يتطلبه المنهج التاريخي ، وإنما هناك أسلوب أدبي ، أو نظرات ذهنية ولفتات عاطفية » ص ١٣ .

وإذا كان ما سبق هو تبيان لموقفه من كل كتاب السيرة قديمهم وحديثهم منذ بداية كتابه ؛ فإنه ظل على موقفه هذا طوال صفحات الكتاب ، وحتى السطور الأخيرة ، إذ يقول « ومن أراد أن يكتب في السيرة فليعمل وليبحث ويهرق نفسه ليقدم للناس شيئاً جديراً بالإسلام ونبيه ، وأما الهلاميات والخطايات والأسلوبيات ، فزيف يكسب بها أصحابها المال ، ولكنها ليست بقربى إلى الله سبحانه » ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

وربما كان الذي أثار المؤلف وجعله منفعلاً أثناء كتابته ما وجدته في كتب المستشرقين الطاعين على الإسلام والقرآن والنبي ، وربما استشهد هؤلاء بما ورد عفوياً في كتبنا . ولكن العجيب أن المؤلف يقول عن كتب هؤلاء المستشرقين « أنه شخصياً لم ينتفع منها بشئ إلا في المنهج — أي طريقة البحث » ولست أدري أية طريقة يمكن أن يستفيد منها المؤلف مادامت تتوصل بمن اتبعها إلى تزيف الحقائق .

وكننت أود من كاتبتنا الكبير أن يتناول
كتّابنا بلهجة تخالف تلك اللهجة التي
تناولهم بها .. كأن يقول لهم : إن كتابة
السيرة طبقاً للمنهج العاطفي قد استنفدت
أغراضها وأدت دورها العظيم الذي حمت به
الأمة الإسلامية من الضياع خلال عصور
طويلة عانينا فيها من محن شديدة مؤلمة
وتعرضنا خلالها لغزوات تترية وصليبية وأوربية
وأمرىكية عسكرية وثقافية .. ولكننا الآن

نعيش عصراً جديداً انفتحنا فيه على العالم ،
وانفتح العالم علينا ، فلا بد أن نخاطب العالم
بلغة يفهمها ، ويحترمنا بسببها ، وهي أولاً
لغة العقل ، ولا مانع من تغذيته بالعاطفة
المعتدلة .

وختاماً ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا
غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾
الحشر : ١٠ .

